مركز أوال للدراسات والتوثيق
AWAL CENTRE FOR STUDIES AND DOCUMENTATION

أرشيفو
ARCHIVO

العدد 9 - آذار/ مارس 2018

ذاكرة الصورة

متحف طارق رجب في الكويت عودة الماء الشّرقي إلى نبعه

أحمد السّعيد

نكتشف هنا عيونًا أخرى عادت إليها الحياة بعد أن كادت المياه تجفّ حولها. سافرت هذه العيون من جذرها في الكويت إلى مصر والمغرب، فأميركا، وشرق آسيا، الهند وإندونيسيا والصين، تطلب الماء عبر الأزمان. تدخل مزادات الماء الشرقي في الغرب لتعيده إلى نبعه وتعيد إليه هُويته.

يجوب الزمن من القرن الهجري الأول، مرورًا بالعصر الأموي، العباسي، إلى عصر المماليك والعثمانيين، يبحث عن شيوخ الخطّاطين وجامعي الرقوق والمهتمّين بالمشغولات وقطع الأثاث الّتي تشكّل إرثًا عربيًا إسلاميًا، فيأتي به إلى أرضه.

طارق رجب، الذي هام بعشقه يبحث عنه عبر الأمكنة والأزمان، جمع أوَّل الرقوق والمشغولات في الرابعة عشرة من عمره، وافتتح في العام 1980 متحفًا يحمل اسمه، ثم افتتح متحفًا للخط الإسلامي في العام 2007، يشكّل امتدادًا للمتحف الأول، ويعود له الفضل في تأسيس أول مدرسة أجنبيَّة في الكويت في العام 1969، وهي المدرسة الإنجليزيَّة الحديثة التي تقع في قبالة المتحف الإسلامي في منطقة الجابرية.

كيف لا يَعرف المكان!

كان السؤال الأول الذي طرحه عليَّ مدير المتحف والقائم بأعماله، عباس دشتي، وهو صديق قديم لطارق: «من أين عرفت المكان؟». في هذه الزيارة الأولى إلى الكويت، كنت دائمًا ما أسمع من الناس أنَّ هذا البلد ليس فيه ما هو مختلف عن وطني البحرين، وليس فيه أيضًا ما يستحقّ الاعتناء به! ولكن لو قررت زيارة الكويت، فما هي الوجهات التي سترشدك إليها عيون السياح؟ ستجد في أغلب مواقع الإنترنت أو توصيات الزوار من سيقول: «اذهب إلى المجمع التجاري «الأفنيوز» للتسوق، أو إلى «أربيلّا»؛ المنطقة الساحلية البديعة التي تطلّ عليها أشهر المطاعم العالمية، أو سيقولون لك: اذهب إلى «المارينا كريسنت».. «تعشّى ثم تمشّى».

تعرَّفت إلى المكان من خلال أحد المواقع الإلكترونية الذي كان قد رشَّحه للزيارة ضمن قائمة المراكز المهمة في الكويت. ولأنَّني من محبي التراث العربي الإسلامي، حدّدته وجهةً لا بدَّ من زيارتها. كلّ تلك الأماكن الترفيهيّة التي تزورها في أيّ بلد تبقى ناقصة ما لم تخصِّص يومًا للتعرّف إلى إرثه، تاريخه، حضارته، والهُوية الّتي تميّزه عن باقي بقاع العالم.

الفنان الإيطالي كارلو كوردو، رئيس مجلس النواب النيوزيلندي ديفيد كارتر، وسفراء من دول متفرّقة، جميعهم زاروا هذه البقعة. عندما زرتها، كنت متأسّفًا وفرِحًا في الوقت ذاته؛ متأسفًا لأنَّ أحد الأصدقاء الكويتيين أخبرني بأنه لم يعرف المكان إلا من خلال ما نشرته في صفحتي الخاصة في أحد مواقع التواصل الاجتماعي من صُور، وفرِحًا لأنَّني شجَّعته من خلال هذه الصور على زيارته!

جولة في «التاريخ»

عند وصولنا إلى المتحف صباحًا، كانت السَّماء شبه غائمة مع رياح خفيفة، كأنها تنبئ بحملنا على بساط ريح من موقعنا ذاك إلى أماكن لم نرها إلا في أفلام المخرج التونسي الناصر خمير. كان المبنى شبه هادئ، إلا من صوت ضجيج بعض الطلبة الذين خرجوا من المدرسة الإنجليزية لأخذ استراحة.

يبدو المبنى من الخارج أنه يتألف من ثلاثة طوابق، ولكن ما إن تدخل حتى تدرك أنَّك في المنتصف تمامًا بين طابقين. يطالعك عند المدخل سلمٌ يقودكَ إلى الأسفل، إلى «القبو»، أو إلى الأعلى. الطوابق كلها مفتوحة على بعضها البعض، صمِّمت لتعطي شعورًا بالهيبة، ولتسمح بأستار الكعبة الثلاثة التي تتدلى من السقف إلى الردهة السفلية بأن تكون في واجهة المكان، فيتمكّن الزائر من ملاحظتها من جميع الزوايا. كلّها أستار قديمة نُقشت عليها بعض الآيات، إحداها يعود إلى العام 1251هـ/ 1835م، أمر بصناعتها السلطان المغازي محمود خان بن السلطان عبدالحميد خان.

جُلنا في المكان منتظرين قدوم دشتي ليشرح لنا بالتفصيل عن تاريخه والقطع الموجودة فيه. لاحظنا أنه قُسِّمَ إلى عدة غرف؛ غرف تتوزع بحسب البلدان التي جاءت منها القطع، وغرف تضمّ القطع الأقدم، وأخرى تحوي نوعًا واحدًا من القطع الفنّية؛ ففيه غرفة ضمت نسخًا مكرّرة لـ «الحلية النبويَّة الشريفة»، التي تتضمن أوصاف النبي الخَلقية والخُلُقية، والتي يجب على كلّ خطاط أن يخطّها ولو لمرة واحدة في حياته. أما باحة المتحف، فقد عُلّقت على جدرانها في الممر بعض الأواني الفخارية المنقوشة بخطوط مختلفة.

أسئلة.. وإشكاليات

أقدم مخطوط وُجد في المتحف كان من شمال أفريقيا – القرن الثامن الميلادي/ الثاني للهجرة - كُتِبَ بالخط الكوفي بلا نقاط، وهو من أقدم الخطوط العربية. بالرغم من أنَّ أبا الأسود الدؤلي وضع النقاط على الحروف، ولكن يبدو أن شمال أفريقيا كانت تُخطّ

بلا حروف حتى ذلك القرن. وبهذا، وصلت إلينا هذه المخطوطة التي خطَّ بها المسلمون الأوائل القرآن الكريم.

أما زوجتي التي شاركتني الرحلة، فقامت بتغطية النص الحديث الذي يترجم المخطوطة، وتحدَّتني أن أقوم بقراءتها. وقفت لدقائق أقرّب رأسي وأباعده محاولًا التركيز، ولكنني لم أستطع أن أقرأ حرفًا واحدًا حتى كشفت يدها عن النصّ، فبدا بخطّ النسخ الحديث المعتاد في كتابة القرآن حاليًا، واستطعت بذلك أن أقارب بين الحروف، فكان نصًّا من سورة الحجر.

إنَّ هذا التغيّر بين النصّ الأصلي للقرآن وشكل النصوص المتداولة اليوم، أثار دهشتي. إنَّه يعكس تاريخًا طويلًا؛ ليس فقط تاريخ تغيّر شكل النص، بل ما يتخلَّل هذا الشّكل الخارجي من أحداث امتدّت طوال الحقبة التاريخية من القرن الأول حتى الآن، ساهمت في تغير مفاهيمنا أيضًا حول النصّ القرآني. ولفهمه، أصبحنا بحاجة إلى أن ننفتح على أفهام عديدة تصارعت سياسيًا وثقافيًا، وتداخلت عبر تاريخ تغيّره أيضًا، من علم الكلام، إلى الفقه ومدارسه، إلى الفلسفة والعرفان.. في تلك الرقعة التي امتدت من الأندلس إلى الصين.

هذه اللحظة الَّتي كشفت فيها زوجتي عن بصري بيدها، جعلتني أطرح تساؤلات عديدة: هل فهمنا اليوم للقرآن بشتى مدارسنا أو مذاهبنا هو نفسه فهمنا له بالأمس؟ أم أنّ هناك بونًا شاسعًا بينهما؟

ولو في الصين!

لم يكتفِ طارق رجب بالاتجاه إلى الغرب والدخول في مزادات أميركيَّة وأوروبيَّة لإعادة الشرق إلى الشرق، ولكنه توجَّه إلى الشرق أيضًا، إلى الهند والصين، ففي بعض غرف المتحف، توجد مخطوطات هندية باللغة العربية، ومخطوطات دمجت بين الفن الصيني وحضارته العريقة والفن الإسلامي، ما يجعلك تغمض عينيك وتتخيّل: هل كان خلف كلّ هذا الجمال حروب؟ كم مات فيها؟ أم أنها تداخلت وامتزجت عن طريق الحبّ؟

أعتقد أنَّ هناك قصصًا كثيرة يمكن أن تحكى عن أناس اعتنقوا إيدلوجيات من خلال حبّهم لفنونها. في الفنون، يتسامح كلّ تاريخ وحشيّ ليبدو بجماليّة اللوحة التي تحوي فنًا صينيًا وفنًا عربيًا. يعبر الفن عن وجه من وجوه لقاء الحضارات يتوارى فيه صدامها.

بعض الأعمال تشعر معها بروحانية الفنان التي يتذوَّقها القلب بصورة أكبر من اللغة.. هذا النوع من الروحانيات الرفيعة ساهم في اعتناق الخطاط الأميركي محمد زكريا، وتلميذته عائشة، الإسلام. وكما يقول الشيخ محيي الدين ابن عربي: «من أحب صورة دخل فيها».

من الأعمال المذهلة والمحيرة في المتحف نسخة للمصحف لخطاط إندونيسي لم يستخدم فيها الورق القلم أو الدواة - المحبرة - وهي التي يجب أن تكون أدوات الخطاط الأساسية، فقد جمع جريد النخل وخاطه ليشكّل ورقًا، ثم دقّه بمسمار بعد تعريضه بالنار ليحفر الجريد.. إضافةً إلى عمل يدوي آخر عبارة عن سجاد مزخرف ومخطّط بإتقان لسيدتين إيرانيتين كفيفتين.

تُوفي طارق رجب في العام 2016، إلا أنَّ الماء الذي سعى له أصبح اليوم نبعًا يجذب السّياح من الشرق والغرب. يخبرنا دشتي أنَّ وفدًا من إسبانيا ووفودًا آخرين نزل الماء من أعينهم، وخصوصًا أمام مخطوط للمصحف الإندونيسي وسجاد الإيرانيتين الكفيفتين.

أحمد السعيد: كاتب بحريني مهتمّ بقضايا التراث والأدب، حائز على بكالوريوس في اختصاص الإعلام والعلاقات العامة. شارك في عدة دراسات وأبحاث تتصل بالقضايا الإسلامية.

للتواصل عبر الإيميل: ahmedd.alsaeed@gmail.com